القرن الإفريقي: لعبة المصالح الدولية وحسابات دول المنطقة (الجزء الرابع والأخير)

التقرير الأسبوعي

الرقم: 22

إعداد: الكاتب والباحث / عبد الله الفاتح

تاريخ الإصدار: الأحد 11 مارس 2018

نبذة عن المؤسسة

الصومال الجديد مؤسسة أهلية غير ربحية تعمل في مجال الإعلام والبحوث والدراسات والتنمية البشرية، وتأسست المؤسسة على يد مثقفين وكوادر مهنيين صوماليين في العاشر من شهر مايو عام 2015، ويقع مقرها الرئيسي في العاصمة الصومالية مقديشو.

Website: www.alsomalaljadid.com / www.alsomal.so / www.alsomal.net Email:alsomalaljadid@gmail.com

طبيعة التوجه العربي للقرن الإفريقي:

كما سبق أن أشرنا في الجزء الثاني من هذا التقرير، فإن العلاقات بين العرب والساحل الشرقي لإفريقيا، تعتبر قديمة وضاربة في عمق التاريخ، وتعود جذورها إلى ما قبل ظهور الإسلام بعصور سحيقة، حيث أقام العرب بعلاقات وطيدة مع سكان المنطقة.

وهنا لا يفوتنا أن نذكر بأن العلاقات بين العرب وسكان المنطقة، لم تقتصر على التجارة فقط، بل أن هناك علاقات أخرى، لها طابعها الديني توطدت بين سكان الساحل الإفريقي بصفة عامة وإثيوبيا على وجه الخصوص، وبين مصر التي كانت معبر ومستقر العروبة منذ قرون قديمة، ويتجلى ذلك من خلال الرابط الديني بين الكنيسة المصرية والكنيسة الإثيوبية القبطية، فقد ارتبطت الثانية بالأولى ارتباط الابنة بالأم منذ عام 331م.

وبدوره أعطى ظهور الإسلام أبعاداً جديدة للعلاقات بين شعوب الجزيرة العربية والسواحل الشرقي لإفريقيا، خاصة وأن هذه المنطقة عرفت الإسلام منذ فجر الدعوة الإسلامية، وأن الإسلام بسماحته قد أتاح للعرب المسلمين من تعزيز نفوذهم واستقرارهم في المنطقة من خلال توثيق الصلات مع شعوب المنطقة، ولهذا ظلت هذه العلاقة تشهد تطوراً مستمراً وازدهاراً كبيراً خلال الحقب التاريخية المختلفة.

مصر والقرن الإفريقي .. تاريخ من العلاقات المثمرة:

كما سبقت الإشارة، فإنه يمكن وصف العلاقات المصرية مع مختلف دول القرن الإفريقي، بأنها علاقات تاريخية قديمة، حيث تعود جذورها إلى عهد الفراعنة.

والثابت تاريخياً أن اليقطة المصرية الحديثة التي بدأت ببناء الدولة العصرية في مصر، قد مدت إشعاعها إلى إفريقيا كلها خاصة شرق ووسط القارة، وعبر هذا الإشعاع الحضاري،

تبلور مرة أخرى حقيقة الدور المصري في إفريقيا منذ أوائل القرن التاسع عشر، كدور رائد في الحضارة والمدنية والثقافة، ثم في التحرر والاستقلال في القرن العشرين.

وسواء كان الهدف المصري هو تحقيق مزيد من الاستكشافات ونشر الحضارة المدنية بين الشعوب الأفريقية، أم كان هدفاً سياسياً بحتاً يرمي إلى التوسع والنفوذ لحماية أطرافها ومواجهة الاستعمار الأوروبي، فإن من المؤكد فإن الوجود المصري قد بلغ أوسع انتشاره في عصر الخديو إسماعيل الذي كانت له سياسة محددة ومعلنة في إفريقيا.

وفي تلك الفترة امتد الوجود المصري إلى منطقة البحيرات الإستوائية والسودان في وسط القارة الإفريقية وفي بعض أقاليم الحبشة والصومال وعلى طول ساحل البحر الأحمر، الأمر الذي حول مصر إلى إمبراطورية لها ممالك كثيرة ومتسعة في إفريقيا خاصة في شرق القارة ووسطها، فيها المدن والمدارس والمستشفيات، ويعسكر فيها أيضاً الجنود والضباط المصريون، ولهذا أصبحت السياسة المصرية عاملاً مؤثراً في السياسة الدولية في المنطقة وإفريقيا ككل، وهذه كانت إحدى العقبات الأساسية التي واجهتها القوى الاستعمارية الأوروبية الحديثة حين بدأت توسعها وبسط نفوذها في إفريقيا بعد تقسيمها.

ومع تصاعد النفوذ الأوروبي وقوته الغلابة، اضطرت مصر إلى سحب وجودها من شرق ووسط إفريقيا، وقد استطاعت بريطانيا أن تضغط على الخديو إسماعيل حتى أجبرته على وقف سياسته في إفريقيا وتقليص نفوذه وبالتالي سحب جيوشه منها، الأمر الذي أدى إلى تحجيم نشاطها الواسع ووقف سياستها الخارجية خاصة فيما يتعلق بالدور المصري الإفريقي.

وهكذا استطاعت القوى الاستعمارية الجديدة أن تمد نفوذها إلى منطقة القرن الإفريقي ومن ثم إعادة تشكيل الأوضاع والحدود السياسية في المنطقة وفق مصالحها الاستعمارية مستفيدة من الفراغ الكبير الذي خلفه الانسحاب المصري من الساحل الشرقي لإفريقيا، ولقد كان لتلك

التطورات والتداعيات التي سادت هذه المرحلة تأثيراتها البالغة، ليست على المنطقة فحسب، وإنما على مصر التي سقطت نفسها في يد الاحتلال البريطاني منذ 1882م، الأمر أنهى الوجود المصري الفعال في شرق إفريقيا أولاً ثم وسطها خاصة السودان ومنطقة البحيرات الإستوائية.

ومع تراجع الدور المصري وانحسار نفوذها التاريخي في المنطقة، برزت في الأفق الإمبراطورية الإثيوبية، كقوى إقليمية جديدة تتسابق لاقتسام المنطقة وتوسيع حدودها على حساب دول الجوار الأخرى خاصة الصومال وإريتريا.

وهنا لا يفوتنا التذكير بأن مصر قد بدأت منذ منتصف القرن العشرين، محاولات عديدة لاستعادة دورها ونفوذها على المستوى الإقليمي والعالمي، خاصة من الناحية السياسية والاستراتيجية، وذلك من خلال دعم حركات التحرر الوطني في إفريقيا والوطن العربي، فقد تحولت مصر التي كانت أهم قاعدة للاستعمار البريطاني في العالم إلى قبلة لكل قادة حركات التحرر ومنبراً للعروبة ومناهضة الاستعمار.

وبما أن الدولة المصرية لم تكن أصلاً غنية بالقدر الذي يسمح لها بإغداق الأموال على جميع حركات التحرر في مختلف أنحاء إفريقيا، ولذلك فإن القيادة الجديدة بعد الاستقلال، اعتمدت بذكاء على القوة الناعمة المصرية متمثلة بالإعلام والفن والثقافة والتعليم.

وفي سياق ذاتها قام الرئيس المصري الراحل جمال عبد الناصر، بإنشاء إذاعة "**صوت العرب**" في القاهرة عام 1953م، ومن ثم إطلاق أكثر من 25 إذاعة موجهة لإفريقيا تبث برامجها بلغات ولهجات إفريقية مختلفة، وتلك الإذاعات لعبت دوراً محورياً في نقل ثقافة النضال والتحرر إلى القارة السمراء، فضلاً عن دعم حركات التحرر في الصومال وجيبوتي ودول القرن الإفريقي ككل.

كما أن قضية البحر الأحمر وموضوع النيل، ظلتا يشغلان المساحة الأعظم من اهتمام عبد الناصر، ضمن القضايا الأفريقية الأخرى، حيث رأى أن استمرار وبقاء دول القرن الإفريقي تحت قبضة الاستعمار يضعف مصر ويهدد أمنها القومي وموانئها وجزرها البحرية من ناحية الجنوب، ولهذا أولى عبد الناصر اهتماماً كبيراً لتوثيق الصلات مع الصومال بعد استقلالها وذلك باعتبارها حليفاً استراتيجياً يجب المحافظة على العلاقات معه بأي ثمن وفي ظل أي ظروف.

بيد أن الدور المصري العربي والإفريقي، قد شهد تراجعاً مستمراً بعد رحيل جمال عبد الناصر وتبدل سياسة مصر بوصول الرئيس الراحل أنور السادات خاصة مع اتجاه الأخير لعقد سلام منفرد مع إسرائيل، مما فجر حربا عربية عربية باردة، فقد بدأت دول الصمود العربي تهاجم مصر ليل نهار، ما أثر فعلاً في دورها ومكانتها التاريخية بشكل كبير.

وقد استمر الأمر على حاله إلى أن تولى الرئيس الأسبق حسني مبارك للسلطة، وبدأ جهودا دبلوماسية كبيرة نجحت في ترميم العلاقات المصرية . العربية، وإعادة مقر الجامعة العربية إلى القاهرة، ولم يختلف الأمر كثيراً بالنسبة للعلاقات المصرية . الإفريقية، إلا أن التحولات الكبرى التي شهدتها خارطة السياسة الدولية في بداية حقبة التسعينات من القرن العشرين، المتمثلة في إنتهاء الحرب الباردة وتفكك الاتحاد السوفتي ومنظومة الدول الشيوعية الدائرة في فلكه، وبروز الولايات المتحدة الأمريكية كقوة أحادية ولاعب وحيد متفرد بالقضايا الدولية المختلفة، أدى إلى تحجيم الدور المصري في القرن الإفريقي وتهميشه لصالح قوى إقليمية ذات النفوذ في المنطقة وعلى رأسها إثيوبيا التي استفادت من انهيار الحكومة المركزية في الصومال عام 1991م، لتعزيز نفوذها الإقليمي، ودخلت إريتريا مؤخراً في الصراعات

الصومالية من باب المكايدة لإثيوبيا كما دخلت دول أخرى مثل كينيا وأوغندا وقد ساهمت تلك الدول بدرجات متفاوتة في تأجيج الصراع داخل الصومال وتمزيق دولته.

ومن جانبها سعت مصر منذ اندلاع الأزمة الصومالية إلى إيجاد حلول للصراع، وقد استضافت القاهرة مؤتمراً للمصالح الوطنية عام 1997م، ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل، نتيجة لإعلان إثيوبيا رفضها القاطع لتنفيذ قرارات ونتائج المؤتمر على أرض الواقع.

ومع أن المشكلة الصومالية كان لها تداعياتها وتأثيراتها البالغة في تراجع الدور المصري بمنطقة القرن الإفريقي، لكن القاهرة لم تكن راغبة في مواجهات حادة مع إثيوبيا باعتبارها حليفا استراتيجياً للولايات المتحدة الأمريكية في المنطقة.

ومن جهة أخرى لم تقتصر المنافسة بين إثيوبيا ومصر على الملف الصومالي فحسب، فقد رأت مصر أن تمارس حقها فيما تسميه مجالها الحيوي بالتأثير في مجريات ملف جنوب السودان، وأصدرت المبادرة الليبية . المصرية في أكتوبر 1999م، كبديل عربي لمبادرة دول (الإيغاد) عقب انهيار مفاوضات نيروبي بين الحكومة السودانية والحركة الشعبية المتمردة.

ومع أن المبادرة كانت واضحة في رفضها لمسألة تقرير المصير لجنوب السودان المتضمنة في إعلان المبادئ للإيغاد، غير أن التحرك المصري والعربي عموماً، لم يكن بالقوة التي توازي الضغوط العسكرية والدبلوماسية الهائلة التي كانت تتعرض لها حكومة السودان من الدول الغربية فضلاً عن الدعم المباشر من بعض دول الجوار للحركة الشعبية لاستطالة الحرب في الجنوب لمصالح خاصة بها.

وعودة لطبيعة التوجه العربي الراهن للمنطقة، فإنه من الصعوبة بمكان الحديث عن استراتيجية عربية موحدة، ولا حتى عن رؤية عربية مشتركة، تجاه منطقة القرن الإفريقي،

وذلك في ظل تأزم العلاقات العربية والتباين حول مجمل القضايا العربية المختلفة، ومن ضمنها ما كان يعرف "**بالأمن القومي العربي المشترك**".

ولذلك ما زال يعتبر التوجه العربي بشكل استراتيجي لمنطقة القرن الإفريقي ضعيفاً حتى الآن، مقارنة مع القوى الإقليمية الصاعدة مثل إسرائيل وإيران وتركيا وغيرها.

الاهتمام العربي الراهن .. الأسباب والدوافع:

هناك عوامل جيوساسية عدة، تشكل فعلاً محركاً أساسياً لاهتمام بعض الدول العربية بالمنطقة في الوقت الراهن، لعل أبرزها التداخل الجيوبولتيكي الكبير، وكذلك الأهمية الاستراتيجية لهذه المنطقة وما لها من تأثيرات بالغة، ليس على الأمن والمصالح العربية فحسب، وإنما على حركة الملاحة الدولية والنشاط الاقتصادي ومؤشرات الأسواق المالية العالمية، خاصة وأن منطقة القرن الإفريقي ترتبط بمناطق للتوتر والتنافس العالمي، وذلك عبر حدودها الجغرافية التي تربطها باليمن ومن ثم بمنطقة الخليج العربي، كما أن هذه المنطقة قد أصبحت توصف . من قبل الخبراء والمحللين . بأنها جزء من "**منظومة الشرق الأوسط الكبير**"، ولذلك اجتذبت كثيرا من الصراعات والتدخلات الدولية والإقليمية التي تخفي وراءها العديد من الأهداف الاستراتيجية غير المعلنة.

وإلى جانب ما سبقت الإشارة أعلاه، فإن قضيتي مياه النيل وتأمين البحر الأحمر، يشكلان عاملاً أساسياً لتدافع العديد من القوى الإقليمية الصاعدة مثل إسرائيل وإيران لتعزيز نفوذها وهيمنتها على المنطقة، للحيلولة دون تفرد الدول العربية بالسيطرة على البحر الأحمر، وربماً كان هذا واحدا من الأسباب التي دفعت بعض الدول العربية خاصة الخليجية الاهتمام مؤخراً بمنطقة القرن الإفريقي وما يجري فيها من أحداث، بيد أن طبيعة ومستوى الاهتمام العربي بتطور الأحداث ومآلاتها المستقبلية في المنطقة، تتباين من دولة لآخرى إلى درجة التعارض

والتناقض، نتيجة لغياب رؤية سياسية عربية مشتركة مستقلة عن الاستراتيجيات الدولية المعلنة من الولايات المتحدة الأمريكية والدول الأوروبية ذات النفوذ التقليدية في المنطقة.

لقد كانت الأزمة الخليجية القطرية الأخيرة، بمثابة ورقة التوت التي تخفي ورائها العديد من عوامل التناقض والتنافر العربي، فقد كشفت الأحداث وتطوراتها عن عجز وشلل النظام العربي الراهن، وخلل واضح في الرؤية العربية المشتركة، مع عدم وجود موقف ثابت تجاه القضايا الأساسية ذات الطابع القومي، الأمر الذي يعكس عدم ثبوت وحدة الهدف بين الدول العربية، كما أن تداعيات الأزمة، كشفت مدى وحقيقة الخلل في الميزان الاستراتيجي والأمني في هذه المنطقة.

وهنا يبدو جلياً أن مجمل المواقف والتحركات العربية هي عبارة عن ردود أفعال مؤقتة، لا ضرر منها ولا تأثير ولا معنى لها سوى تعبير واضح عن تراجع الدور العربي المستمر لحساب الأطراف الإقليمية ذات النفوذ والسيطرة في المنطقة.

وبناء على تلك المعطيات أعلاه، نستطيع القول مرة أخرى، إن طبيعة الوجود العربي الاستراتيجي في المنطقة ما زال ضعيفاً حتى الآن، من حيث مستوى التعاون السياسي والأمني والعسكري مع دول المنطقة، ومن حيث المصالح الاقتصادية والاستثمارية أو التسيق المشترك حول استخدام الموارد والثروات الهائلة التي تزخر بها المنطقة.

خيارات وحسابات دول المنطقة:

من حقائق التاريخ والسياسة أن قوة الدول في عالم اليوم لا يقاس بقدرتها الاقتصادية العسكرية وأهمية موقعها الجغرافي وثقلها السكاني "البشري" فحسب، وإنما يقاس أيضاً بقدرتها السياسية لحماية مصالحها وأمنها القومي، علماً أن قوة السلاح ومهارة التخطيط وإعداد

الجيوش تظل دائماً أذرعاً تنفيذية تتعامل مع الواقع الذي ترسمه الجهات السياسية والاستخباراتية.

وهذه الحقيقة لا تغيب عن بال صانعي القرار، وهو الأمر الذي يجعل دولا صغيرة لا تملك كثيرا من المقومات العسكرية والاقتصادية، أن تبرز كقوة فاعلة ومؤثرة في المشهد الإقليمي والدولي، نتيجة لتخطيط استراتيجي ورؤية سياسية ثاقبة تجاه مختلف المشاكل الداخلية والتحديات الخارجية المحيطة بها.

وهذا فعلاً ما لا يتوفر حالياً لدى معظم النخبة السياسية الحاكمة لدول القرن الإفريقي، مما يجعل تطور الأحداث ومآلاتها المستقبلية، أمراً مرتبطاً بالسياسات والاستراتيجيات الخارجية لدى الدول الكبرى والقوى الفاعلة في المنطقة.

ولهذا يعتقد أن دول المنطقة سوف تواجه العديد من التحديات التي تزيد من حدة الصراعات وتعقيد الأزمات في المنطقة وبالتالي فإن طبيعة العلاقات السياسية بين هذه الدول قد تشهد خلال المرحلة القادمة مزيدا من التأزم والاهتزاز، نتيجة للأجندات المحلية المتحالفة مع الأجندات الخارجية، وذلك ما لم تتبنى دول المنطقة رؤية جديدة تعلى من أساليب الحوار والتعاون المشترك لوضع خطط عملية تهدف إلى تسوية سلمية للصراعات الدائرة في المنطقة واعتماد التكامل الاقتصادي الإقليمي، كحل للمشاكل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والأمنية في المنطقة، وبالتالي تنسيق تلك الشراكة على المستوى الإقليمي والدولي بما يخدم مصالحها المشتركة ويعزز الموقف التفاوضي والمركز المالي والتجاري لدول المنطقة.

الإحالات المرجعية:

ا. د. نجلاء مرعي، التدافع الدولي نحو "القرن الإفريقي، مجلة البيان ، العدد 300، 2013م.

2. عاصم فتح الرحمن، تغيير موازين القوة في القرن الإفريقي، مركز دراسات المستقبل، الخرطوم، 2012م.
3. د. عبد الرحيم حاج يحيى، العربية الفصحى في اللغة الصومالية، مكتبة الملك فهد الوطنية للنشر، الرياض،2006م.
4. إدريس سليمان، الدور الأمريكي في إنفصال جنوب السودان، المجلة السودانية للدراسات الدبلوماسية، العدد التاسع، الخرطوم، 2011م.
5. عبد الوهاب الصاوي، السودان والقرن الإفريقي، المجلة السودانية للدراسات الدبلوماسية، العدد التاسع، الخرطوم، 2011م.
6. سامي السيد أحمد محمد، القرن الإفريقي .. صراع دولي على النفظ والجغرافيا، صحفية البلاد، العدد 22162، التاريخ 2018/10/01م.
7. عبد الله الفاتح، التوغل الإيراني في القرن الإفريقي، مركز مقديشو للبحوث والدراسات، 2015م.
8. صلاح الدين حافظ، صراع القوى العظمى حول القرن الإفريقي، عالم المغرفة . 49، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.